فائز محمد علي الحاج
❖ ندوة علم النفس، القاهرة، 1989م؛ أبحاث ندوة علم النفس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1413هـ/1993م، ص101 –127 [27 صفحة من القطع المتوسط].
* لغة البحث(الكتاب): اللغة العربية.
* مجال البحث (الكتاب): التراث النفسي الإسلامي.

❑ ❑ ❑

ابتدأ الباحث بنبذة عن حياة الإمام الغزالي وشخصيته وعصره، ثم حاول من خلال عرض عصر الإمام الغزالي أن ينفذ إلى التطورات الفكرية والاجتماعية والثقافية والحوادث السياسية في القرن الخامس الهجري الذي عاشه الإمام الغزالي ليجعل كل ذلك الخلفية التي يمكن أن ينظر للغزالي من خلالها.

كما حاول الباحث أن يتحدث عن المسحة الصوفية للغزالي وكيف أن الغزالي منح التصوف حياة وقوة لا يزال يعيش عليها حتى اليوم، وبرغم إنكار الغزالي للإتحاد والحلول إلا أنه كان يسلِّم بالذوق والفيض والإلهام. ويرى أن طهارة النفس سبيل لكشف الحجب والوصول إلى معلومات وحقائق لا يمكن الوصول إليها عن طريق الحس والعقل. كما يرى الباحث أن التصوف عند الغزالي قد اختلط بالأخلاق ليصف كتاب (إحياء علوم الدين) بأنه مؤلف صوفي أخلاقي في آن واحد.

* ثم ينتقل المؤلف بعد تلك المقدمة الطويلة عن الغزالي وعصره ومؤلفاته واتجاهاته إلى فلسفة التربية التي آمن بها الغزالي مستنتجاً إياها من مؤلفات الغزالي: فاتحة العلوم، أيها الولد، ميزان العمل، الرسالة اللدنّية ثم إحياء علوم الدين. ويرى الباحث أن الغزالي قد وضع نظاماً تربوياً كاملاً شاملاً ومحدداً، وأنه رسم هدفه التربوي على وفق نظرته للحياة – أي على وفق فلسفته –، ثم وضع المنهج العلمي الذي رآه مناسباً لتحقيق هدفه وغرضه فقسّسم العلوم إلى شرعية، وقسّم غير الشرعية إلى ما هو محمود ومذموم ومباح. ثم تكلم الباحث بعد ذلك عن أهمية كل منها عند الغزالي.

* وفي الفقرة اللاحقة ينتقل الباحث إلى ما سماه «علم نفس الطفل» عند الغزالي الذي بناه - برأي الباحث - على أساس نظرته للنفس الإنسانية وعلى فهمه لطبيعة الطفل وغرائزه.

- فالنفس خلوة من أي نقش، فإن عوِّد الخير وعمله نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وإن عوِّد الشر شقي وهلك (ويورد ما جاء به حديثاً أصحاب المدرسة التجريبية الإنجليزية لوك وهوم بذات الاتجاه)
- ورغم إيمان الغزالي بأثر التربية ودورها في توجيه الغرائز إلا أنه لا ينكر الإستعدادات الوراثية التي تتحكم في عملية التعلم ويعترف بدور الطبيعة ويعرف حدود التربية والإكتساب والتطبع ليلتقي مع علماء النفس المحدثين فيما يتصل بالحدود بين الوراثة والبيئة أو «الطبع والتطبع Nature and Nurture».
- وهو لا يرى كما ذهب بعض المربين المسيحيين بفساد الطبيعة البشرية الواجب قمعها وتطهيرها، بل رأى أن للغرائز والشهوات وظيفتها وأن واجب التربية حسن توجيهها.
- وتبدأ تربية الطفل عند الغزالي من الحضانة، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا أمراة صالحة متدينة تأكل الحلال، ويعطي الباحث في ذلك قائمة طويلة من نصائح الغزالي لتربية الطفل في هذه المرحلة بكل ما يتعلق بشؤون حياة الطفل ورعايته وتوجيهه.
- ويدرك الغزالى أهمية اللعب للطفل وحاجاته إلى ألوان النشاط الحسي ويربط ذلك النشاط بتعليم الطفل وذكائه.
- كما منع الغزالي استخدام القسوة مع الطفل في تهذيب السلوك ونصح بعدم التمادي في العقاب والتأنيب.

* بعد ذلك ينتقل الباحث إلى باب جديد يتعلق بالصحة النفسية عند الغزالي، حيث يرى الغزالي أن الإعتدال في الأخلاق والصفات دليل على صحة النفس (القلب)، والإنحراف في الخلق دليل على مرض النفس وسقمها. كما يرى الغزالي أن علاج النفس يحتاج إلى مرب عالم بطبيعة النفس البشرية

وبنقائصها وبوسائل إصلاحها. كما يؤكد على أن أقوم الطرق لاكتساب الفضائل هي الرياضة ويعني بها حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب، إضافة لتوكيده على أهمية القدوة الصالحة والمثل الحسن من المرشد حتى يستطيع علاج المسترشدين «فمثل المرشد للمسترشد كمثل الظل من العود فكيف يستوي الظل والعود أعوج».

* ويدخل الباحث في باب آخر من إسهامات الإمام الغزالي في علم النفس وهو نظرية الفعل المنعكس الشرطي. حيث يرى في كتاب (المستصفى) للغزالي عرضاً لنظرية الفعل المنعكس الشرطي والتي سماها - أي الغزالي - «سبق الوهم إلى العكس». حيث أشار الغزالي أثناء نقاشه مع المعتزلة في حكمهم على الحسن والقبيح أن ما نراه حسناً لذاته هو في الحقيقة ليس كذلك، وإنما ثبت فيه الحسن بسبب مصاحبته اللازمة لغرض من الأغراض. فالأمور كلها بحد ذاتها سواء، وإنما يتصف بعضها بالحسن والآخر بالقبح نظراً لإقترانها بأغراض الناس ومصالحهم وفوائدهم ومصاحبة هذه الأمور الإقترانية اللازمة لها. حتى غدت هذه الأمور الإقترانية المصاحبة لهذه الأشياء «وكأنها مقرونه بإطلاق بسبب استمرار الإرتباط بينها، وطول الإقتران بها وألفة الناظر لهذه الأمور متبوعة أو ملازمة لما هو مقرون بها» ويضرب الغزالي مثلاً على ذلك «نفرة نفس السليم (وهو الذي نهشته الحية) عن الحبل المبرقش اللون لأنه وجد الأذى مقروناً بهذه الصورة فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى» (ويضرب الباحث أمثلة على مفاهيم الإشتراط والإقتران عند بافلوف وسكنروماور وواطسن ليري القارئ من كان صاحب الرأي والفضل في هذا الباب).

ولقد ميز الغزالي بين استجابة الخوف الناجمة عن الإقتران من أنها استجابة كسبية وليست فطرية.

وتحت عنوان الوهم والقوة النفسية العملية ينقل لنا الباحث قول الغزالي بأن «النفس منا، متى توهمت شيئاً طيب المذاق تحلبت أشداقه وانتهضت القوة الملعبة فياضة باللعاب من معادنه»، وهذا هو الإشتراط الكلاسيكي للإستجابة غير الإرادية للعضلات الملساء في الأحشاء والغدد الذي تحدث عنه (بافلوف) فيما بعد.

ثم يتطرق الباحث إلى قول الغزالي بأن «المشاهدة والتجربة تدل على أن

الحب يتعدى من ذات المحبوب إلى ما يحيط ويتعلق بأسبابه ويناسبه ولكن ذلك من فرط المحبة» ليدلنا على ما نسميه في علم نفس اليوم «تعميم المثير». ثم يستطرد الباحث في ذات المجال لينقل لنا مقالات الغزالي العجيبة فيما نسميه اليوم(رد الفعل الشرطي) ويقارنه بأقوال (سكنر) صاحب الإجراء الإشراطي.

* ثم يختتم الباحث ورقته بخلاصة وجيزة يوجهها إلى المهتمين والدارسين في هذا المجال ليقفوا على أهمية تلك الآراء والأفكار والنظريات ليعرفوا أن الفلاسفة المسلمين لم يكتفوا بالنقل بل أضافوا إلى الفكر الإنساني أفكاراً ونظريات ذات أهمية بالغة في معرفة النفس وأسرارها وتربيتها.

❑ ❑ ❑

عناوين رئيسة:

أسلمة علم النفس - التراث النفس الإسلامي - الغزالي وعلم النفس - الصحة النفسية - التعلم الشرطي.

❑ ❑ ❑

ملاحظات:

- الإسهامات التي قدمها الإمام الغزالي في مجال علم النفس كثيرة ومتعددة وإبداعية آناً واحداً، وبرغم أن الباحث تطرق إلى عدة مواضيع للإشارة إلى إسهامات الغزالي في مجال علم النفس، إلا أنه/ أي الباحث/ كان علمياً ومبدعاً ودقيقاً جداً في حديثه عن نظرية الفعل المنعكس الشرطي عند الغزالي، وبطريقة لم يسبق لإحد قبله الدخول بها بمثل هذا العمق والتفصيل على ما أعلم.
- إلا أن إبداعات وإسهامات الغزالي في الصحة النفسية والعلاج النفسي في غاية الثراء، وكان يمكن أن يفرد لها ذات ما أعطيت نظرية الفعل المنعكس الشرطي من تحليل ومقارنة، لأن ما كتبه الغزالى فيها يفوق الكثير حتى ما عند المحدثين.

- كذلك فيما يتعلق بإطوار النمو الإنساني عند الغزالي ومتطلبات كل طور منها، لم تشر لها هذه الورقة مع الإقرار بعدم إمكانية تفصيل كل شئ في ورقة محدودة المساحة.
- وأحب هنا أن أشير إلى أن هذه الورقة مميزة من حيث قدرتها على الربط المحكم بين التراث النفسي الإسلامي من جهة وبين طروحات علم النفس المعاصر من جهة أخرى، وهذا ما نحن في أمس الحاجة إليه.

❑ ❑ ❑

opeikandl.com